

الفصل الثاني : بشارة العذراء

١- الاستقبال



كثيرًا ما كُتِبَ عن الفَرْقِ بينَ مريمَ في القرآنِ ومريمَ في الإنجيلِ. ليسَ هدْفُنَا المُقارَنةَ بَغِيَّةَ تَكْذِيبِ المَعْلُومَاتِ فِي الدِّينِ الأَخرِ؛ إِنَّمَا عَلِينَا عَرَضُ مَعْلُومَاتِ إِيمَانِنَا المَسِيحِيِّ وَالتَّعَرُّفِ إِلَى مريمَ مِنْ خِلالِ الإنجيلِ وَتعليمِ الكَنِيسَةِ.

تمتاز مريمَ عن سائرِ النَّاسِ بِأَنَّهَا قَدْ حُبِلَ بِهَا بِلا دَنَسٍ، وَحَبِلَتْ بِيسوعَ وَوَلَدَتْهُ وَبَقِيَتْ عَذْرَاءً، ثُمَّ مَاتَتْ وَانْتَقَلَتْ إِلَى السَّمَاءِ بِالنَّفْسِ وَالْجَسَدِ. مريمَ هِيَ عَذْرَاءُ وَأُمٌّ، لِأَنَّ ابْنَ اللَّهِ تَجَسَّدَ فِي حَشَاها، لَا مِنْ زَرْعِ

بَشَرِيٍّ، إِنَّمَا بِقُوَّةِ الرُّوحِ الْقُدُّسِ، وَبذَلِكَ هِيَ «أُمُّ اللَّهِ». مريمَ هِيَ أَيْضًا أُمَّنَا لِأَنَّنا بِالْمَسِيحِ نَلْنَا نِعْمَةَ التَّبَنِّيِّ؛ عَلِينَا أَنْ نُحِبَّهَا مَحَبَّةً بَنَوِيَّةً وَنَسْتَرشِدُها فِي شِدَائِدِنَا لِأَنَّها قَادِرَةٌ عَلَى مُسَاعَدَتِنَا، فَيَسُوعُ لَا يَرُدُّ لها طَلْبًا.

٢- قراءة الإنجيل وتفسيره

بشارة العذراء (لو ١: ٢٦-٣٨)

^{٢٦} وفي الشهر السادس، أرسل الله الملاك جبرائيل إلى مدينته في الجليل اسمها الناصرة،
^{٢٧} إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم. ^{٢٨} فدخل إليها فقال: افرحي، آيتها الممثلة نعمة، الرب معك. ^{٢٩} فداخلها لهذا الكلام اضطراب شديد وسألت نفسها ما معنى هذا السلام. ^{٣٠} فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم، فقد نلت حظوة عند الله. ^{٣١} فستحملين وتلدين ابناً فسميه يسوع. ^{٣٢} سيكون عظيماً وابن العلي يدعى، ويوليه الرب الإله عرش أبيه داود، ^{٣٣} ويملك على بيت يعقوب أبد الدهر، ولن يكون ملكه نهاية ^{٣٤} فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا ولا أعرف رجلاً؟ ^{٣٥}

فَأَجَابَهَا الْمَلَائِكَةُ: إِنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ سَيَنْزِلُ عَلَيْكَ وَقُدْرَةَ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكَ، لِذَلِكَ يَكُونُ الْمَوْلُودُ قُدُوسًا وَابْنَ اللَّهِ يُدْعَى. ^{٣٦} وها إن نَسِيَّتِكَ أَلْيَصَابَاتٍ قَدْ حَبَلَتْ هِيَ أَيْضًا بِابْنٍ فِي شَيْخُوخَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الشَّهْرُ السَّادِسُ لِتِلْكَ الَّتِي كَانَتْ تُدْعَى عَاقِرًا. ^{٣٧} فَمَا مِنْ شَيْءٍ يُعْجِزُ اللَّهَ. ^{٣٨} فَقَالَتْ مَرْيَمُ: أَنَا أُمَّةُ الرَّبِّ فَلْيَكُنْ لِي بِحَسَبِ قَوْلِكَ. وَانصَرَفَ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِهَا.

١.٢ - الشرح

نحنُ في بلدةِ النَّاصِرةِ وفي مَنْطِقَةِ الجليلِ. لَسْنَا فِي أورشليمَ ولا في الهيكلِ. وَنَعْرِفُ تَمَامًا أَنَّ لَا مَجَالَ لِلْمُقَارَنَةِ بَيْنَ أُمَّيَّةِ الجليلِ وَهَامِشِيَّتِهِ، وَثَقُلَ أورشليمَ الدينيِّ. نحنُ أمامَ وَضْعِ اجْتِمَاعِيٍّ بَسِيطٍ (عذراء مَخْطُوبَةٌ) وَلَسْنَا أَمَامَ الكهنوتِ المُنظَّمِ الَّذِي يُقَرِّبُ البخورَ فِي الهيكلِ. يُجْتَارُ الرَّبُّ الأضعفَ (امرأة)، وَالهامِشَ (الجليل)، وَيَرْضِي بِالوَضْعِ الاجْتِمَاعِيِّ البَسِيطِ: هَذَا دَلِيلٌ عَلَى حُبِّ اللَّهِ لِلْمُتَوَاضِعِينَ وَالفُقَرَاءِ.

إِنَّ تَحِيَّةَ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ (٢٨ : ١) تُفَهِّمُنَا أَنَّهَا مَلِيئَةٌ مِنْ بَرَكَاتِ اللَّهِ وَنِعَمِهِ وَبُطْمَئِنُّهَا الْمَلَائِكَةُ أَنَّ اللَّهَ يَحْمِيهَا وَيُسَانِدُهَا بِمُبَادَرَةٍ مَجَانِيَّةٍ مِنْهُ. وَأَخْبَرَهَا أَنَّهَا سَتَحْمِلُ ابْنًا سَيَكُونُ ابْنُ الْعَلِيِّ الْمَالِكِ عَلَى عَرْشِ دَاوُدَ. هَدَفُ البِشَارَةِ إِذَا «كْرِيسْتُولُوجِيٌّ» مِنْ خِلَالِ وَلاَدَةِ الْمَسِيحِ الْمُخْلِصِ عَلَى أَرْضِنَا.

إِنَّ سَوَالَ مَرْيَمَ (٣٤ : ١) يُفَهِّمُ مِنْ كَوْنِهَا مُزَوَّجَةً شَرَعًا لِيُوسَفَ فِي حِينٍ لَمْ تَتَمَّ المُسَاكَنَةُ بَعْدَ. فَكَيْفَ يُمَكِّنُهَا أَنْ تَحْمِلَ دُونَ عِلَاقَةٍ بِرَجُلٍ؟ إِنَّ سَوَالَهَا يَعْنِي أَنَّ الأَمْرَ مُسْتَحِيلٌ بَشْرِيًّا، إِلَّا إِذَا حَدَثَ تَدخُلُ إلهِيٍّ عَجَائِبِيٍّ. وَهَذَا مَا أَفْهَمَهَا إِيَّاهُ الْمَلَائِكَةُ مُؤَكِّدًا أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ سَتُظَلِّلُهَا، كَمَا غَطَّى مَجْدُ اللَّهِ مَسْكَنَ الشَّعْبِ فِي الصَّحْرَاءِ مَعَ مُوسَى (خر ٤٠ : ٣٥)، وَأَنَّهَا سَتَحْبِلُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَسَيُدْعَى الْمَوْلُودُ مِنْهَا «ابْنُ اللَّهِ».

لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلَى صَبِيَّةٍ يَهُودِيَّةٍ تَحْدِي التَّقَالِيدَ الاجْتِمَاعِيَّةَ. فَالْمَخْطُوبَةُ الحُبْلَى هِيَ زَانِيَةٌ وَعَاقِبَتُهَا الرَّجْمُ وَالمَوْتُ. عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ مَجْدَ اللَّهِ الَّذِي أَحَاطَ بِهَا لَمْ يُلْغِ عَنْهَا الحُرِّيَّةَ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا دُونَ إِرَادَةِ. لِذَلِكَ، عِنْدَمَا قَالَتْ مَرْيَمُ «نَعَمْ، أَنَا خَادِمَةٌ لِلرَّبِّ» (١ : ٣٨) كَانَتْ تُعَبِّرُ بِحُرِّيَّةٍ عَنِ كَامِلِ اسْتِعْدَادِهَا غَيْرِ المَشْرُوطِ لِلقِيَامِ بِهَذِهِ المَغَامِرَةِ. إِنَّ خَبْرَتَهَا الإِيمَانِيَّةَ السَّابِقَةَ عَلَّمَتَهَا الطَّاعَةَ لِرَغْبَاتِ الرَّبِّ وَشَرَائِعِهِ، رُغْمَ العُمُوضِ الَّذِي يَلْفُ مُسْتَقْبَلَهَا. وَمِنْذُ تِلْكَ «النَّعْمُ» بَدَأَتْ أَمْطَارُ النِّعَمِ عَلَى البَشَرِيَّةِ؛ مِنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، بَدَأَ اتِّحَادُ اللَاهُوتِ بِالنَّاسُوتِ، بَدَأَ تَكْوِينُ الْمَسِيحِ فِي حَشَا مَرْيَمَ، بَدَأَ الخِلَاصُ. تُعَبِّرُ مَرْيَمُ بِمَوْقِفِهَا هَذَا عَنِ إِيْمَانِ البَقِيَّةِ البَاقِيَةِ مِنَ الشَّعْبِ اليَهُودِيِّ المُصْغِي لِإِلْهَامَاتِ

الله والعمل بها في حياته.

٢. ٢ - التأوين

يُعلِّمنا إنجيلُ بشارَةِ الملاك للعذراء التَّواضُّعَ لأنَّ اللهَ يُحِبُّ المتواضِعينَ ويأتي لِعَوْنِهِمْ ومُساعدَتِهِمْ. ويطلبُ إلينا أن نثقَ بكلامِ اللهِ إذ يُخاطِبُ قَلبنا فيملاءُ حرارةً مُحبَّةً، ويُعطينا سلامًا ودِفئًا لا نجدُهما في العالمِ الخارجِيِّ. فكما اكتشفتَ مريمَ نداءَ اللهِ في أعماقِها من خلالِ ما سمعتَ من الكتابِ المُقدَّسِ وما تلتَ من صلواتٍ، كذلك نحنُ نستكشفُ إرادةَ اللهِ ونسمعُ صوتَهُ من خلالِ الكتابِ المُقدَّسِ وإلهاماتِ الرُّوحِ القُدسِ فينا.

كُلُّنا قد يُغيِّرُ مجرى التاريخِ من خلالِ استعدادِهِ وطاعتهِ لمشيئةِ اللهِ. كلُّنا هوَ كَمريمَ، عندما يَجُلُّ فيهِ الرُّوحُ القُدسُ في المعموديةِ، يستطيعُ أن يكونَ قديسًا إذا صمَّم على ذلك. فالمعموديةُ لا تُلغي حُرِّيَّتنا إنَّما تُعطينا نعمةَ الخلاصِ والقداسةِ في حالِ أكملنا طيلةَ حياتنا مسيرةَ التوبةِ والطاعةِ لِشرائعِ اللهِ.

لِتتخذِ مريمَ «ماما السَّماءِ»، ولنجبها محبةً بنويَّةً، ولنعملَ بها أوصتنا بهِ في قانا الجليلِ «افعلوا ما يأمركم بهِ يسوع» (يو ٢: ٥)؛ فقد قالَ القديسُ برنردوسُ «من كانَ للعذراءِ عبدًا، لن يُدرِكهُ الهلاكُ أبدًا».

٣ - التعليمِ اللاهوتيِّ والروحيِّ: مريمَ في تعليمِ الكنيسةِ

لقد وعَتِ الكنيسةُ أهميةَ الدورِ الذي لِعَبتهِ مريمَ أمُّ يسوعَ، وقد كانت منذُ البداية حاضرةً في مسيرةِ الكنيسةِ. في مشهدِ المذودِ مثلًا رأى المَجوسُ «الطفلَ وأُمَّهُ»، ويروي المؤرِّخونَ كيفَ كانَ المسيحيونَ الأوَّلُ يَحجُّونَ إلى المكانِ الذي رَقَدَت فيه مريمَ، وتنوقلتَ البشريُّ سريعًا في أن الرَّبَّ قد نقلها إلى السَّماءِ حيثُ هوَ قائمٌ، للحياةِ الأبديةِ.

مريمُ حُبَلُها مِن دونِ دَنسِ الخطيئةِ الأصيليةِ: تأمَّلِ القديسونَ القُدما، ومنهُم منَ نُسَمِّيهِم «آباءِ الكنيسةِ» بحياةِ مريمَ وبدعوتها. ورأوا أنَّ الجسدَ الذي سيحملُ ابنَ اللهِ في أحشائه، لا يُمكنهُ أن يكونَ مُدنسًا بفعلِ الخطيئةِ. وفهِّموا بإلهامِ منَ الرُّوحِ القُدسِ أنَّ الرَّبَّ قد حَفَظها منذُ ولادتها منَ أيِّ ميلٍ لِعَمَلِ الشرِّ. ما كانَ ذلكَ بقوَّتِها هيِّ، بل بنعمةِ منه، وكأنَّها شاركتَ مُسبقًا في الخلاصِ الذي أتمَّهُ ابنُها، هي إذا لم تنزلق في هُوَّةِ الخطيئةِ التي تَطالُ كُلَّ الجنسِ البشريِّ، معَ أنَّها كائِنُ بشريُّ مثلنا.

مريم أم يسوع وأم الكنيسة: أمام الصليب قال يسوع لمريم مُشيرًا إلى التلميذ الواقف بجانبها: «هذا ابنك»، وقال للتلميذ: «هذه أمك». تلك الكلمات أحبها كل المؤمنين، لأنهم اعتبروا أن يسوع يجعل من أمه أمًا لهم. لذلك اعتادت الكنيسة أن تتأمل في حياة مريم وتتعلم منها كيف كانت تحفظ كلمات يسوع وتتأملها في قلبها. والكنيسة أيضًا تُصلي لمريم، وتطلب شفاعتها، فهي اليوم وإلى الأبد، إلى جانب ابنها تُحبُّ النَّاسَ وتُصلي لهم.

مريم والدة الله: هذه العبارة هي الأقوى في العقائد المريمية، وقد كانت سبب نزاع طويل وما زالت. لا تُريد الكنيسة أن تقول أن مريم قد ولدت الله قبل كل الدهور، وكأنها هي أيضًا إلهًا. لكن مريم ولدت يسوع في الزمن، ويسوع إنسان حق وإله حق. بما أنها والدة يسوع الإله-الإنسان، يُمكننا أن ندعوها والدة الله.

انتقلت مريم بالنفس والجسد إلى السماء: كيف يُمكن للجسد الذي سكنه الله أن يُصبح عرضة للفساد؟ قال المسيحيون الأولون أن الرب لم يسمح أن ينال الفساد من جسد مريم. لذلك نُؤمن أنها صورة للكنيسة، بل للبشرية، التي سيدعوها الله إلى مشاركته مجده ولن يتركها رهينة للفساد التراب.

٤ - للقراءة والتأمل: قراءة لمار أفرام السرياني (+٣٧٣)

«أيقظي أوتارك يا قيثارتني في مديح مريم العذراء. ارفعي صوتي وترنمي بسيرة العذراء العجيبة. ابنة صهيون التي ولدت لنا «حياة العالم».

امراتان بريتان بسيطتان كل البساطة، مريم وحواء، كانتا في كل شيء متساويتين غير أنه، فيما بعد صارت الواحدة سبب موتنا والأخرى سبب حياتنا.

ميلادك الإلهي، يا رب، قد وهب ميلادًا للبشرية كلها. ولدتك البشرية حسب الجسد، وأنت ولدتها حسب الروح. المجد لك يا من صرت طفلًا لكي تجعل الكل جديدًا.

إن قيثارة الروح القدس هذه لن تبعث لنا أعذب مما تُصدره حين تتعنى بمديح مريم، مريم هي جنة عدن التي من الله، ففيها لا توجد حياة تضر... فيها شجرة الحياة التي أعادت المنفيين إلى عدن.

حَمَلَتْ مَرْيَمُ «النَّارَ» فِي يَدَيْهَا وَاحْتَضَنْتِ اللَّهَيْبَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا، أَعْطَتْ لِلَّهَيْبِ صَدْرَهَا كِي يَرْضَعَ وَقَدَمَتْ لِذَلِكَ الَّذِي يَقْوَتْ الْجَمِيعَ لَبَنَهَا، مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْهَا؟

جَاءَ كَلِمَةُ الْآبِ مِنْ حِضْنِ الْآبِ وَفِي حِضْنِ آخَرَ لَبَسَ جَسَدًا، جَاءَ مِنْ حِضْنِ إِلَى حِضْنِ
إِمْتِلَاءَ الْحِضْنَانِ النَّقِيَّانِ بِهِ، مُبَارَكٌ هُوَ هَذَا الَّذِي يَسْكُنُ فِيْنَا.»

